I. قراءة في رواية الغيث.

تغوص رواية الغيث في المجتمع الجزائري منذ فترة تزيد عن نصف القرن، حتى قبل انطلاق حرب التحرير، وذلك من خلال أحداث تجمع بين التاريخ الاجتماعي والأسطوري، وعبر شخصيات محددة المعالم، وصراعات تراجيكوميدية تصل إلى غاية التسعينيات من القرن الماضي.

ولقد تناول الروائي محمد ساري في رواية الغيث جملة من المراحل التي عاشتها الجزائر قبل وبعد الاستقلال ومن ذلك مظاهرات الخامس أكتوبر 1988، وبداية ظهور الخطاب الأصولي العنيف الذي كانت له نتائج وخيمة على المجتمع الجزائري.

هناك عودة إلى سنوات ما قبل بداية الإرهاب حيث انهيار المؤسسات الاقتصادية الجزائرية، وتحول الجزائر من نظام القطاع العام والاشتراكية إلى نظام الرأسمالية المتوحشة.

وكذلك استعراض الأحداث التي عاشتها الجزائر في فترات مختلفة عبر بطل الرواية الذي ولد أثناء الثورة التحريرية في ظروف الحرب المعقدة جدا.

والحكاية حكايتان متوازيتان: حكاية المهدي وأصحابه وحكاية أفراد عائلته المضطربة: أمه نايلة التي اغتصبها العسكر الفرنسيون، والمجاهد أعمر حلموش وتقع في عشقه، ثم حكاية أبوه الشيخ مبارك شيخ الزاوية في أعالي جبال الونشريس والذي جاء إلى المدينة عقب الاستقلال يبحث عن الغنائم وأصبح هو الآخر يقص حكايته الخاصة عن الحرب وأهوالها.

إن الغيث نص روائي يستمد قوته من النصوص التراثية العظيمة ولكنه استثمرها بطريقته الخاصة ليستولي عليها وتصبح ملكه ولغته وخطابه، يعجنها ويشكل منها ما جادت به قريحة صاحبه.

تتناول الرواية جوانب من التاريخ الإسلامي، وبالأخص المغربي عبر شخصيات تاريخية كالمهدي بن تومرت، وعودته الطويلة من المشرق عبر المدن المغربية إلى غاية مسقط رأسه في جنوب مراكش، وكيفية إعلان المهدية في ظروف جد غامضة اختلف المؤرخون في تصنيفها، وهي القصة التي يكتشفها بطل الرواية الغيث في

مخطوط قديم بداخل مسجد استولوا عليه باستخدام الناقة وأصبحوا يلقبون بأصحاب الناقة.

وتريد جماعة أصحاب الناقة تغيير الحياة على طريقتهم المستمدة من الماضي الذي يجمع هو أيضا بين التاريخ الفعلي وبين الأسطورة، وتنطلق الرحلة من موقف إلى أخر، وبطل الرواية يلهث وراء معجزته التي آمن بحدوثها إيمانا لا تزعزعه أية قوة.

وتطرق ساري في الرواية إلى ظاهرة الإيديولوجية الإسلامية التي برزت في الثمانينات وما صاحبها من انهيار في المفاهيم والإيديولوجيات الوطنية والاشتراكية التي سادت في العشريتين الأوليتين من بعد الاستقلال، وكيف اندمج بطل الرواية في الجماعات الإسلامية التي احتلت المساجد وكفرت المجتمع وكيف ظهرت إيديولوجيات جديدة منتقدة للمجتمع وتنكر كل الايجابيات الموجودة فيه حيث نكتشف عبر الحوار الذي ينكر البطل في الحوار الذي جمعه بأحد المجاهدين التضحيات التي قدمها المجاهدون كما ينكر على الشهداء صفة الشهادة فيقول بأنهم حاربوا من أجل الأرض والتراب ولم يحاربوا من أجل الدين.

يقدم الروائي شخصية أعمر حلموش أنموذجا كما أنه يقارن بين جيل الثورة الميال إلى السلطة والثروة، بينما جيل الاستقلال الذي يصارع الفقر والحرمان.

ثم انتقل إلى الصراع الدائر بينهما ولكل واحد منهم إيديولوجياته فهناك من تشبع بالفكر الشيوعي وهناك من تطرف في الدين فهما كفتا ميزان لا تستقيمان أبدا حسب رواية "محمد ساري".

وصار لكل منهما ألقاب يطلقها على الآخر فتارة يشار إلى الاشتراكيين بالزنادقة وتارة يشار للمتطرفين بالجهال والظلمة.

كما تمثل شخصية المهدي علامة مميزة في تطور شخصيات الرواية، فالراوي يتتبع مسار هذه الشخصية انطلاقا من فترة الطفولة التي ميزها الحرمان المادي والمعنوي وهذا ما ينعكس سلبا في توجه هذه الشخصية حينما تعتنق مفاهيم تدميرية للتعويض العاطفي، فتصير هذه الشخصية تتسم بالاضطراب العاطفي، وهذا ما يترجمه تمرد

المهدي ضد إمام المسجد وتعيينه كإمام للجماعة، ثم ما تلبث هذه الشخصية أن تدخل في صراع ومواجهة ضد الشيوعيين في الجامعات والحدائق التي يرتادها العشاق*.

II. التناص الداخلي في رواية الغيث.

يكشف التناص الداخلي عن علاقة محمد ساري بالمخزون الثقافي الذي ينتمي إليه، ويشكل هويته انطلاقا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث الصوفي والتاريخ الجزائري والإسلامي والشعر العربي القديم وصولا إلى نصوص الأدباء المعاصرين له.

1-التناص الديني:

أ- القرآن الكريم:

القرآن معمار فريد... نسيج لوحده...في الطريقة التي تصف بها الألفاظ في رصف خاص يفجر ما بداخلها من نغم، وهو نغم لا ينبع من حواشي الكلمات وأوزانها وقوافيها، وإنما من باطنها بطريقة محيرة، مجهولة تماما، فالشعر يصبح أسيرا للقرآن الكريم بمجرد الاستماع إليه، وقبل أن يتعقل كلماته، في بعض الأحيان أنه يقف أمامه موقف المسحور المبهور"الذي لا يعلم موضع السحر فيما يسمع من هذا النظم العجيب، وأنه ليحس في أعماقه هذا التأثير الغريب"، الذي يخلقه التطابق المحكم والتام بين اللفظ والمعنى، وهذا ما أسماه "عبد القادر الجرجاني" (النظم)، إذأن المزية

---

*محمد ساري : من مواليد 1 فيفري 1958 بشرشال، حاصل على شهادة الدراسات المعمقة من جامعة السوربون الفرنسية في 1981، والماجستير من جامعة الجزائر في 1992. أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر، كاتب ومترجم، نشر ستّ روايات وهي: على جبال الظهيرة 1983، السعير 1986، البطاقة السحرية 1997، المتاهة (بالفرنسية) 2000، الورم 2002، الغيث 2007، وترجم من الفرنسية إلى العربية روايات : العاشقان المنفصلان لأنور بن عبد المالك 2002، الممنوعة لمليكة مقدم 2003، قسم البرابرة لبوعلام صنصال 2006، كما نشر مقالات نقدية ودراسات أدبية عديدة،أنظر : محمد ساري، الغيث، منشورات البرزخ، الجزائر 2007، صفحة الغلاف، رابح خدوسي، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر 2002، ص 185.

الأساسية في نظم الكلام "ليست حيث نسمع الآذان، بل حيث ننظر بالقلب ونستعين بالفكر" لنستنبط معنى الحياة[1].

فما الجديد الذي أضافه اقتباسه للتعبير القرآني، أو ما القيمة التي اكتسبها البناء الشعري؟

وقد تفاوتت طرائق توظيف الجزائريين المعاصرين للنص القرآني، فأعادوا كتابته في نصوصهم وفق مستويات تناصية مختلفة تراوحت بين التكرار الذي يعيد النص القرآني في النص الحاضر على نحو سطحي صامت، والامتصاص، حيث يتمثل الكاتب الدوال اللغوية ودلالاتها ويعيد توزيعها في النص الحاضر، ومن ثم يحدث الانسجام والتلاقي لنص غائب في نص حاضر، بينما تغيب طريقة محاورة النص القرآني، كونه النص الوحيد المثالي المقدس، الذي يتعالى على كتابات الشعراء الذين ينتمون إلى الثقافة العربية الإسلامية.

وتقف رواية "الغيث" شاهدة على ما نقول، حيث تظهر النصوص الأولى فيه في تفاعل مع النص القرآني، تفاعلا تقليديا ينبني على طريقة الاقتباس أو التضمين عند القدامى، متطلعا صاحبها إلى ترقية لغة التعبير والسمو به إلى مدراج البيان العربي الأصيل، لينفتح بعد ذلك على البعد التراجيدي العميق للنص الروائي، في رواية الغيث على الخصوص، سابحا في أجوائه الغيبية، فيغدو هذا الانفتاح معرفيا بالدرجة الأولى، إذتعامل ساري مع القرآن الكريم "بوصفه محتوى الوعي المعادل للوجود الكوني وحركته وما يتمظهر به هذا الوجود من تشيؤ وتكوين ودلالات..."[2]

لقد استدعى محمد ساري بعض من آيات القرآن الكريم في روايته وبثها في لغته سردا واصفا وحوارا بتراكيبها المميزة في سياقاتها المتعددة، تمايزت دلاليا حسب كل استدعاء.

---

[1]– شراف شناف، التناص في ديوان البرزخ و السكين، ص:96.

[2]– نفسه، الصفحة: 97.

إن عنوان "**الغيث**": هو بمثابة الرأس للجسد لا يعدو أن يكون سوى تمطيط لهذا الرأس، ولهذا فهو بوابة النص التي لا يمكن للقارئ أن يعبره دون المرور بها.وعنوان الرواية يشير بوضوح إلى النص الديني، حيث أن كلمة الغيث: تعني المطر والكلأ الذي ينبت من ماء السماء، وقد جاء ذكر هذه الكلمة في القرآن بهذا المعنى ثلاث مرات.

الأولى: في قوله تعالى: ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام**﴾[1]، والثانية: في قوله تعالى: ﴿**وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته**﴾[2]، والثالثة: في قوله تعالى: ﴿**كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد**﴾[3].

والغيث عند الكاتب هو المطر الذي كان أهل البلدة ينتظرونه بفارغ الصبر لأن الجفاف خيم عليهم وعند أصحاب الناقة الذين أرادوا حدوث المطر وأرادواأن ينزل حتى أنهم كانوا يصلون صلاة الاستسقاء لينزل الغيث رحمة بهم ورأفة على حالهم.

والمهدي الذي أراد حدوث المطر على يده كما حدث مع ابن تومرت فقد أراد الاحتذاء به والوصول إلى ما وصل إليه الأولون حينما يقول المهدي: **سأمكث في هذا المكان...انتظر حدوث الغيث الذي أراه آت لا محالة. لا أتحرك من هنا حتى أشعر بالقطرات الأولى تبلل وجهي. سينزل الغيث و سيكون إن شاء الله خيرا عميما، (منالرواية، الصفحة الخامسة).**

وقد استهل محمد ساري روايته بعبارة **سأقص عليكم أحسن القصص**[4]فهو يريد من القارئ المتابعة وحسن الإصغاء والصبر،ولقد وظف الروائيفعل "يقص" في المضارع بضمير"أنا"وبهذا تناص مع الآية الكريمة:﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما**

---

[1]– سورة لقمان، آي, 34.

[2]– سورة الشورى، الآية 28.

[3]– سورة الحديد، آية 20.

[4]– رواية الغيث، ص: 05.

أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين...﴾.[1] التي استهلها المولى عز وجل بالفعل نحن نقص (التعظيم).

ثم تحدث عن الصبر:**ألا يقولون إن الله مع الصابرين؟** عنصر التشويقيريد به لفت انتباه القارئ وقد اقتبسه من﴿**اصبروا فإن الله مع الصابرين...**﴾.[2]

– **يتأمل الناس الأفق الشاحب، آملين في رؤية ضبابة تائهة، آتية تبشر بقدوم الغيث، لكن لا سحابة ولا حتى غيمة قطنية شفافة...إن الله غاضب على عباده**،فهذا يشبهالذي حدث لقوم عاد حين منع الله عنهم المطر الذي ينزل بقدرته من السماء، وهو الذي كانوا يعتمدون عليه في حياتهم خاصة أنهم يعيشون في الصحراء، وصلت عليهم حرارة الشمس الحارقة، كوت جلودهم، احترق الزرع و ماتت الماشية، وبعد أيام من العذاب رأى قوم عاد سحابة سوداء فظنوا أنها المطر، إذ هيا ريح صرصر أهلكوا بها.

وفي الرواية: عبارة: **تحدث الشيوخ برهة عن أيام عسيرة عجاف، من الرواية، الصفحة الحادي عشرة**، وهنا التحدث عن أيام القحط والجفافوقد وردت لفظة عجاف في﴿ **قال الملك إني أرى سبع بقرات سمانيأكلهن سبع عجاف**﴾.[3] وكأننا هنا نقرأ قصة سيدنا يوسف عليه السلام حينما فسر الرؤية التي أتت بالسنين العجاف سنين الجفاف والقحط.

– **فجأة زلزلت الأرض زلزالها، وهرع الناس مرعوبين يتساءلون مالها، من الرواية، الصفحة الحادي عشرة**، يريد الروائي أن يبين هول الحادثة،وما تركت من الأثر،حيث ذهل الناس مرعوبين، متخوفين من أهوال يوم القيامةفتناص مع الآية:﴿**إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجتالأرضأثقالها وقال الإنسان مالها..**﴾[4]

---

[1]– سورة يوسف، [الآية:03].

[2]– سورة الأنفال، [الآية:46].

[3]– سورة يوسف، [الآية: 43].

[4]– سورة الزلزلة، الآية:[01–03].

– **هل هو الله الذي أوحى لها بالزلزلة، من الرواية الصفحة الحادي عشرة،** فتساؤله ليس حقيقي هنا وكأنه يسخر ويتهكم ونستطيع القول بأن تساؤله يريد به التأكيد على قولهفتناص بذلك مع الآية:﴿ **بأن ربك أوحى لها**[1]﴾.

– **أتى الغيث مدرارا**[2]،فلقد ذكرت هذه العبارة مرتين، تناص مع الآية الكريمة: ﴿**استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا**﴾[3]، يصور الأمطار الغزيرة الطوفانية التي هطلت على الجزائر في السنوات الماضية والتي تسببت في إلحاق أضرار بليغة في الأرواح والعتاد، وقد تناص الروائي مع النص القرآني في الموضوع دون تنصيص أو تصريح به، تدعيما لهول هذا الحدث وتعزيزا له.

– **وإن شكرتم ليزيدنكم فالله عز وجل يرزق الذي يشكره و يزيده، من الرواية، الصفحة الثاني عشرة** ولقد تناص معمن الآية العظيمة﴿ **وإن تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾[4]، التي تبين الكرم الإلهي العظيم اللامتناهي وهنا وظفها الكاتب وتناص معها لكن ليبالغ ويتهكم من هؤلاء القوم.

– **قبائل ثمود وعاد ارم ذات العماد، وفرعون، الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد**[5] تناص مع﴿ **ألم ترى كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد**﴾.[6]

–**وأنزله شهبا ونيازك حارقة على أقوام لوط و هاجوج وماجوج**[7]والنَّيْزَكُ جرم سماوي يسبح في الفضاءِ فإذا دخل في جوِّ الأَرض احترق وظهر كأَنه شهاب ثاقب متساقط والتناص مع الآية الكريمة ﴿**إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض**﴾.[8]

---

[1]– سورة الزلزلة، الآية: 05.

[2]– الرواية، ص: 12–13.

[3]– سورة الزلزلة، الآية 05.

[4]– سورة النساء، ص: 147.

[5]– الرواية، ص: 12.

[6]–سورة الفجر، الآية 06–10

[7]– الرواية، صفحة نفسها.

[8]– سورة الكهف، الآية 94.

فهذا قوم مفسد في الأرض، ولقد أراد الروائي أن يستشهد بهذه الأقوام في روايته.

- **يا أيتها النفس الضالة ارجعي إلى ربك مرغمة**[1] تناص مع الآية الكريمة: ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾[2]، يرد المتانص على لسان المهدي وهو على منبر المسجد إثر زلزال الحادي والعشرين من شهر ماي لسنة 2003 والفيضانات الكبيرة التي اجتاحت القطر الجزائري، فاعتبر ما حدث عقابًا شديدًا سلّطه الله تعالى على عباده الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وأنّ ما حدث ما هو إلاّ من مؤشرات قيام الساعة، فعكس معنى النص المرجعي القرآني، حيث جعل الله يتوعّد النفس المشركة به بالعقاب بجهنم يوم القيامة، وأنّ ترجع إليه مكرهة لتنال جزاءها عن سيئات أعمالها في الحياة الدنيا، وبهذا فقد قام الكاتب بإنتاج دلالة جديدة بقلبه لمعنى النص القرآني عبر الاستبدال ليجعله مناسبا للفكرة التي يريد التعبير عنها، وهي تصوير ما يحدث في الواقع الجزائري من أحداث في شيء من الحدّة والمبالغة[3].

- **لا أحد يقاوم إغراءات الجنة**[4]حيث أن الناس بدأت تتنافس على نيل الجزاء الحسن، الحسن، فسحرت العبادة عقولهم وغاصت المساجد بالمصلين، قلوب مرتجفة، يطلبون المغفرة حيث ينتظرون أن يجازوا بالجنة تناص مع قوله تعالى: ﴿و**جزاؤهم بما صبروا جنة وحريرا**﴾.[5]

كما تطرق إلى الحديث عن حوريات الفردوس في قوله: **حورالعين الجميلات، الكواعب، الأبكار،**[6] وقد تناص فيها مع الآية الكريمة ﴿ **كذلك وزوجناهم بحور**

---

[1]- الرواية، ص: 13.

[2]- سورة الفجر، [الآية 27-30].

[3]- سعيد سلام منشور في مجلة "اللغة والأدب" لجامعة الجزائر 2 كلية الآداب واللغات سنة 2012.

[4]- الرواية، صفحة نفسها.

[5]- سورة الإنسان [الآية 12].

[6]- الرواية، ص: 14.

عين﴾[1] فهم لا يكبرون ولا يشيبون ولا يتغيرون، فالله يجعل لهم قرينات صالحات في الجنة.

– **الملائكة المحاسبات صاهرات على توزيع الأرباحبالأقساط**من الرواية (الصفحة14) فتناص بها مع الآية الكريمة: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾[2]، فالله يرى الملائكة تحسب، فهو نداء إلى الناس أن يعملوا الصالحات ويتوبوا إلى الله تعالى، فلا الملائكة تظلم ولا الله يظلم عباده، لهذا فهو يحثهم على العمل الصالح والتنافس على أخذ الثواب والجزاء لأن الملائكة سوف تحسب الأعمال.

– **لا يكلف الله النفوس إلا وسعها**في (الصفحات: 14، 185،245) من رواية الغيث وتناص فيها مع﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾[3]، لها وظيفة إيضاحية لإنتاج دلالة جديدة.

– **صم بكم عمي فهم لا يعقلون**(صفحات: 23، 97، 227)تناص مع﴿**صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾[4]، دعم قول المتكلم وتثبيته، وتأكيده، ولقد استعمل الكاتب هذا التناص التناص كشاهدCITATION ليدعم به كلامه.

– **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**(صفحتا 14، 185)تناص مع ﴿ **لهم أجرُهُم عند رَبّهم ولاَ خَوفٌ عليهُم ولا هُم يَحزَنُون**﴾[5]، أدرجها ليدعم كلامه ويؤكده.

– **الزَّانيَةُ والزّانِي فاجلِدُوا كلّ واحد منهُما مِائةَ جَلْدَة ولا تأخُذكُم بهما رأفَة** (الصفحة 244) **من الرواية**، فتناص بها مع الآية:﴿**الزَّانيَةُ والزّانِي فاجلِدُوا كلّ واحد منهُما مِائةَ جَلْدَة ولا تأخُذكُم بهما رأفَة**﴾[6].

---

[1]– سورة الدخان، الآية 54.

[2]– سورة الزلزلة الآية 07.

[3]– سورة البقرة،آية 286.

[4]– سورةالبقرة، الآية 171

[5]– سورةالبقرة، الآية 277.

[6]– سورة النور، الآية 02.

إنّ أول ما يُلاحظ على هذه الشواهد الأربعة هو محافظة الكاتب فيها على شكلها الأصلي الحرفي من دون أن يُحدث فيها تغييرًا كبيرًا يُذكر سواء من حيث التركيب والصياغة أو من حيث المضمون والدلالة، وقد وظّفها في الرواية للبرهنة على أفكاره وتأكيده لها سردًا وحوارًا.

– **اعتصم بحبل الله، رحمته تسع السموات السبع**[1] تناص مع ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمتي عليكم**﴾.[2]

– **الله أيضا يرزق من يشاء، ومتى يشاء**[3]– **ربي ما يغلق باب حتى يفتح باب من حيث لا تنتظر**[4]، فالرزق في يد الله وهو الذي يقسم الأرزاق كما يشاء متى وأين يشاء وكما يقال الرزق على الله حيث يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه كثيرا جزيلا بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة كما جاء في الحديث: ابن آدم انفق أنفق عليك، وقال الرسول(ص): أنفق بلالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالا، وقوله عز وجل: ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** فهذا تناص مع الآية﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾.[5]

– **إنكم لا تعرفون إلا الرجم والجلد وقطع الأيدي:**[6]وهذه بعض مظاهر العقوبات في الإسلام مثل رجم الشيطان، جلد الزاني والزاني ورامي المحصنات وكذلك قطع يد السارق.

–**ذهل الحاضرون الذين صمموا على حرق الشيخ(الصفحة30)** من الرواية وهنا تناص مع قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما صمم قومه على حرقه عندما هدم

---

[1]– الرواية، ص: 18.

[2]– سورة آل عمران، الآية 103.

[3]– الرواية، صفحة نفسها.

[4]– الرواية، ص:162

[5]– سورة البقرة [الآية: 212]

[6]– الرواية، ص:22.

الصنم الأكبر فصمموا على حرقه لكن نجا بمعجزة من الله سبحانه، وكذلك في الرواية يذكر الروائينجاة الشيخ من الحرق بأعجوبة.

– **لايتوقع أحد ما يمكن للشيطان أن يوسوس في أذن الشيخ المريد، الذي اختفى دون أن يترك أثرا.**[1]تناص مع ﴿**من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس**﴾[2]، يكتشف سكان القرية ذراع جدة الشيخ امبارك مخلوعة من قبله أثناء دفنها، لأنه كان يعتقد بخرافة أنّ من خلع ذراع درويشة في الليلة السابعة بعد دفنها وفتل بها الطعام ثم أكله بأعشاب معينة امتلك نفوذًا عظيمًا. فاعتبر السكان أنّ هذا التدنيس من قبل الشيخ لا يقوم به إلاّ مَن سكنه شيطان من الإنس والجنّ، فالمتناص هنا له وظيفة تدعيمية.

فلقد استوحى كاتب الرواية صورة تدنيس الأموات من الآية القرآنية التي تبيّن الخطر الذي يمثله الشيطان في إغواء الناس ودفعهم إلى المهالك، فالقارئ العادي يجد صعوبة في الاهتداء إلى النص الأصلي المستوحى، والذي أمتصّه النص الروائي حيث إنّه أحدث فيه تغييرًا جذريًا تركيبا وصياغة وسياقا، فأنتج منه بذلك دلالة جديدة[3].

– **ولا الموت الذي يفسح المجال للآتينلاكتظتالأرض وقلة خيراتها**[4] **وهنا يريد الروائي الروائي** بأن الله جعل الموت ليدفع الضر عن الإنسانية تناص مع الآية:

﴿ **ولولا دفع الناس بعضهم بعضا لفسدت الأرض**﴾[5] المراد بهذه الآية أن الله تعالى يدفع المكاره عن الأشرار بوجود الأخيار، فيكون وجود الأخيار سببا لسلامة الأشرار من الفتن والمحن.

– **في أرض خضراء مشجرة، تعبرها وديان مزدانة بالرمان والريحان والتين والزيتون.**[1]

---

[1]– الرواية، ص: 33.

[2]– سورة الناس، [الآية: 04–05].

[3]– سعيد سلام منشور في مجلة "اللغة والأدب" لجامعة الجزائر 2 كلية الآداب واللغات سنة 2012.

[4]– الرواية، ص: 35.

[5]– سورة البقرة، [الآية: 251].

تناص مع: ﴿..**جنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾[2].

– **أنهى الداعون صلاتهم برفع الأيدي نحو السماء وأبصارهم لاصقة بالزرقة الباعثة لليأس**(الصفحة 151) من الرواية تناصت مع:﴿ **خَاشِعَةٌ أَبْصَارُهُم تَرْهَقُهم ذِلّةٌ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون**[3]﴾.

يدعو المهدي المصلين بالمسجد إلى إقامة صلاة الاستسقاء في مزارضريح سيدي المخفي بعد أن أصاب الجفاف منطقتهم، لعلّ الله يستجيب لدعواتهم بنزول الغيث.

هنا يشبّه الكاتب حالة المصلين المنتظرين لنزول المطر بحالة أهل القبور وهم ينتظرون في ذلّ ومسكنة ساعة الحساب يوم القيامة، ويُحاول الكاتب في هذا المتناص أن يشبّه مجتمع الرواية أثناء إصابة المنطقة بالجفاف وانتظارهم لنزول الغيث مثل الانتظار الرهيب يوم الحساب في دار القيامة. فهذه مشابهة فيها شيء من التعسّف والمبالغة؛ لأنّ الانتظار من الأحياء للرحمة من الله تختلف عن انتظار الأموات لها يوم الحساب، لكنها مشابهة مقبولة في الأدب ومن باحث يريد أن يؤسس نصه باستحياء نصوص أخرى سابقة، ليؤكد خصوصيته واستقلاله في إنتاج نص ذي دلالة جديدة.

– و**رأى في المنام شيخا ضامرا يجلس فوق صخرة**[4] تناص مع الرؤية التي رآها سيدناإبراهيم عليه السلام [أنه يذبح ابنه إسماعيل كفداء لله عز وجل، أما في الرواية فالرؤية هي رؤية شيخ ضامر يجلس فوق صخرة.

---

[1]– الرواية، ص: 36.

[2]– سورة الأنعام، [الآية: 99].

[3]– سورة المعارج، [آية: 44].

[4]– الرواية، ص: 42.

– أبٌ على شفا حفرة من الخبل يرضى بوضعيته البائسة ولا يتوقف عن الحمد والشكر،(الصفحة: 195من الرواية) التي تناص فيها الأديب مع الآية الكريمة:﴿ **وكنتُم على شفَا حُفْرَة منَ النّار فأنقَذَكُم منها**﴾[1].

تشبيه قدور بن موسى حالة أبيه المادية المتردية التي توشك أن تدفعه إلى الجنون بحالة قبيلتي الأوس والخزرج اللتين لولا إنقاذ الله لهما بنعمة دخولهما في الإسلام لماتتا على الشرك بالله، فيقلّب قدور بن موسى معنى الآية القرآنية التي تبيّن إنقاذ الإسلام لقبيلتي الأوس والخزرج من الموت الوشيك على الكفر لولا إيمانهما به، حيث يسخط على والده الفقير الذي لا يتواني في إنجاب الأطفال والإكثار منهم من دون احتياط للأمر، فهو يقدم بهذا التصرف على الإصابة الوشيكة بالجنون. ولولا دخول القبيلتين في الإسلام لأوشكتا أن تظلا على الكفر، فكذلك الحال بالنسبة لوالد قدور، فلولا إيمانه بقضاء الله وقدره لأشرف على الجنون بسبب فقره وكثرة ذريته ونسله.[2]

– فلا تدري نفس أين وكيف تموت، (صفحة 210 من الرواية) فهي تناص مع ﴿ و**ما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾.[3]

يقتبس الكاتب في نصه الثاني من القرآن من دون تنصيص أو تصريح بذلك.

وقد حافظ فيه على السياق الأصلي دلاليا مع التعديل فيه من حيث التركيب والصياغة، فالمهدي كان يؤمن بالآية القرآنية إلى الحدّ الذي جعله يحمل معه كفنه باستمرار في كل جنازة، ويوصي أصدقاءه بتعجيل دفنه إذا داهمه الموت في كل لحظة، وهذا النوع من التناص يسهل الاهتداء إليه، ومعرفة مصدره دون عناء.

---

[1]– سورة آل عمران، [الآية: 103].

[2]– سعيد سلام منشور في مجلة "اللغة والأدب" لجامعة الجزائر 2 كلية الآداب واللغات سنة 2012.

[3]– سورة لقمان، آية:34.

– **السارق والسارقة فاقطعوا أيديهم من خلاف،**[1] وأراد المهدي أن يطبق أحكام الشريعة الإسلامية ومثله في ذلك ابن تومرت، أراد أن يحتذي به، فلقد تأثر بحكايته خاصة عندما زار المدن الجزائرية من بينها بجاية وهناك كان يطبق الأحكام الدينية، فنهى عن الفحشاء والمنكر، وقد شنّ فيها حملات ضد ألوان الفن وإحياء الحفلات الموسيقية وفنون الرقص والغناء وكل أنواع الانحراف الأخرى، فتناص محمد ساري مع الآية الكريمة: ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم**﴾.[2]

– **والله قريب يستجيب دعوة الداعي إذا دعاه**[3]فهو يؤكد بقوله على استجابة الرب للدعاء تناص مع الآية:﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعإذا دعان**﴾.[4]

– **هاتوا الحبل... أين الحبل...اربطوا الزانية إلى جذع الشجرة**[5] تناص مع: ﴿**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم مؤمنون بالله واليوم الأخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**﴾.[6]

في هذا لم يكن تناصا كليا بل ضمنيا لأنه يفهم فقط في السياق فربط الزانية إلى جذع الشجرة طبقا للآية القرآنية في تطبيق العقاب وهو المائة جلدة.

ب– الحديث النبوي الشريف:

يحضر الحديث النبوي الشريف في رواية الغيث كنص شرعي، يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، من حيث إشراق العبارة وفصاحة اللفظ وبلاغة القول، يسهم بقوة في تأسيس رؤية الراوي النقدية للواقع ويمنحه شرعية الحجة والبرهان.

---

[1]– الرواية، ص: 124.

[2]– سورةالمائدة الآية: 38.

[3]– الرواية، ص: 151.

[4]– سورة البقرة، ص: 186.

[5]– الرواية، ص: 222.

[6]– سورة النور [الآية 02].

كما يعضده بطاقة تخييلية فنية تسمو بشعرية النص نظرا للمكبوت النبوئي الذي ينطوي عليه الحديث، والذي يفيض صدقا، كونه نابع من شخص الرسول الكريم الذي أوتي جوامع الكلم، وهو أحسن طبيب لهذه الأمة.

– **من سيرضع الطفل بعد وفاة أمه**[1]عندما ولد اعمر حلموش توفيت والدته، ولقد احتار والده في أمر من يرضعه، **تناص مع قصة مرضعة الرسول (ص)**، تناص مع حكاية حليمة السعدية مرضعة الرسول الكريم بعد وفاة أمه أمينة.

– **صلاة الاستسقاء**[2] تناص مع: **خرج رسول الله (ص) يوما يستسقي فجعل إلى الناس ظهره يدعو الله واستقبل القبلة وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين**[3].

إيراد الكاتب لنص الحديث للمشابهة بين انقطاع الغيث في عهد الرسول (ص) وقيامه بأداء صلاة الاستسقاء، وبين انقطاعه في مدينة عين الكرمة، ودعوة المهدي الناس للقيام بهذه الشعيرة الدينية المتوارثة.

إن اختيار المهدي لإقامة صلاة الاستسقاء في البطحاء المحاذية لمزار ضريح سيدي المخفي، يرمز إلى احترامه لمشاعر الناس في الإيمان بالأولياء والصالحين واعتقادهم في كراماتهم ومعجزاتهم، وأنّ التوسل للخالق وإطلاق الأدعية من هذا المكان سيليّن قلبه ويدفعه إلى إنزال رحمته، فيروي عطش أرضه وعباده المستغيثين وهي المعجزة التي طالما انتظرها الجميع.

– **مؤشرات قيام الساعة**[4]تناص مع:**من أشراط الساعة أن يقلّ العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا ويُشرب الخمر وتكثر النساء ويقلّ الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد.**[5]

---

[1]– الرواية، ص: 59.

[2]– الرواية، ص: 147، 148.

[3]– صحيح مسلم، ج 1، ص:354.

[4]– الرواية، ص 248.

[5]– صحيح البخاري، ص: 21.

اعتبر سكان مدينة عين الكرمة ظهور شكل اسم " الله " في سمائهم واقعة عجيبة ومؤشرا من مؤشرات قيام الساعة، التي تحدثت عنها كتب الحديث والسيرة النبوية، مع العلم أنها مجرد ألعاب نارية وهي من مكتشفات التكنولوجيا في العصر الحديث

إنّ الكاتب يستحضر النص الديني الخاص بأشراط قيام الساعة ليؤكد به على بوادر ظهور مؤشرات حدوثها في بيئة مجتمع الرواية، وهي تعكس أوضاع الجزائر المتردية خلال سنوات العنف والإرهاب.

– **من ستر مؤمنا ستره الله في الدنيا والآخرة**[1]تناص مع: "**لا يسترعبدا في الدنيا إلاّستره اللهُ يوم القيامة** "[2]،تكتشف لالة فطومة نايلة زوجة الشيخ امبارك علاقتها المشبوهة بسي أعمر حلموش، وتسوق المتناص، والتي تعترف فيه ضمنيا بخطيئتها، إنّ إنطاق الكاتب لنايلة اليتيمة، والتي ضبطتها لالّة فطومة الجارة لها تخرج من الغابة يوما مع سي أعمر حلموش مجاهد المنطقة وصاحب الفضل عليها كما تقدم، لأنه هو الذي أنقذ زوجها الشيخ امبارك من القتل بسبب تهمة خيانته للثورة.

فجاء المتناص الذي نطقت به نايلة في حوارها مع جارتها لالّة فطومة في محلّه المناسب داخل نسيج الرواية، ويعبّر عن شخصيتها القروية البسيطة التي تنتمي إلى البيئة الشعبية.

– **النساء ناقصات عقل ودين،**[3]يُروى عن رسول الله (ص) أنه قال: يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار فإنني رأيتكن أكثر أهل النار. فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير.

وما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ. قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين.[4]

---

[1]– الرواية، ص:105.

[2]– ينظر، صحيح مسلم، ج 2، ص: 432.

[3]– الرواية، ص: 235.

[4]– ينظر، صحيح مسلم، ج 1، ص 48.

يسوق الكاتب الحديث على لسان المهدي الذي يشنّ حملة على ذوي السلوكات المنحرفة من النساء، إذ يعتبرهنّ سبب فساد المجتمع ويدعم رأيه ويؤكده بالمتناص.

إنّ المهدي هو شخصية دينية، ومن الطبيعي أن يكون حديثه ذا طابع ديني، كما أنّ رؤيته التي يتبناها هي رؤية دينية، وتبعا لذلك فإن الكاتب قد راعى هذا الجانب في إنطاقه بالمتناص الديني المناسب له، وهو ما أعطى وظيفة تدعيمية لنص الرواية.

– لم أقم إلا بالواجب، نحن جيران ورسولنا الكريم أوصى بالجار

2– التناص مع التراث الشعبي:

إن التراث باعتباره ذلك المخزون الثقافي المتنوع والمتوارث من قبل الآباءوالأجداد والمشتمل على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية بما فيها من عادات وتقاليد، وهو روح الماضي وروح المستقبل بالنسبة للإنسان الذي يحيا به ويموت به وتموت شخصيته وهويته إذا ابتعد عنه، فإنه مادةأولية يصنع منها الكاتب عجينته الإبداعية بعدها تتشكل على هيئة تحديد انتماء الكاتب الاجتماعي والثقافي، وتميزه عن غيره من الكتاب.

تناصت رواية محمد ساري مع التراث الشعبي بشكل ملحوظ فيما يخص الأمثال الشعبية، وحضور التناص في هذه الرواية يفرضه منطق الحوار الذي تبرره مواقف الشخصيات، وقد يعتمد عليه للكشف عن أهداف الكاتب ومقاصده، لأن الكاتب أثناء توغله في قلب التراث سيضفي ما في أعماقه من معاني وجماليات شكلية تخدم أغراضه الفنية، وانتقاء ساري وتوظيفه للتراث الشعبي يعكس بالضرورة موقفه وموقف عصره من التراث.

أ– الأمثال:

ترتبط الثقافة الشعبية في مجتمع ما بالعادات والتقاليد، والأمثال والحكم والقص القصصي والخرافات وغيرها من مختلف الطقوس، كما تميز مجتمع عن آخر ومنطقة عن أخرى، فتجد الناس يتعودون على طريقة عيش معينة يتباهون بتلك العادات وتلك الطقوس.

وبما أن الأديب ما هو إلا جزء من المجتمع، وينطبق عليه ما ينطبق على مجتمعه بحيث نراه يتأثر بتلك العادات ويتفاعل معها، وعند كتابته لأي نص أدبي يدرج فيه الأمثال والحكم والخلافات والقصص وغيرها من ثقافته الشعبية المحلية.

ونلاحظ في هذه الرواية أن الكاتب قد تفاعل مع الثقافة تفاعلا ملحوظا لدرجة إدراجه بعض الأمثال الشعبية الشائعة.

- **تفرقوا شذر مذرمن الرواية، الصفحة** 11، فالشذر هو قطع الذهب والشذر هو اللؤلؤ الصغار، فتفرقوا شذر مذر أي ذهبوا مذاهب شتى مختلفين، ولا يقال ذلك في الإقبال[1].

وفي الرواية: من شدة هول الزلزال، تفرق الجميع شرقا وغربا هروبا من الصاعقة.

- **من زرع التوابيت، حصد الكواعب.**[2]

-**اللي يحب الزين يصبر لعذابو**[3]: يضرب هذا المثل في من لقي عناء في شخص أو شيء يحبه، فالذي يحب الجمال يصبر لعذابه هو مثل شعبي من التراث الجزائري، ولقد وظفه الكاتب في هذه الرواية عند مللهم من انتظار الباخرة التي ستبحر بهم نحو فرنسا أو كندا، فالصبر عن زين الباخرة يعذبهم.

-**لا أشتري الحوت في البحر:**[4] وهذا المثل يضرب عادة عندما لا نريد المغامرة في الشيء غير الواضح، أو شراء شيء غير معلوم، يقال لا اشتري الحوت وهو في البحر بل يجب رؤيته أولا، وقد وظف المثل في الرواية عندما طلب عبد القادر سيجارة من الشاب ووعده بأن يدفع عند وصولهم الى فرنسا (أدفع لك دراهمك بالفرنك أو ربما بالدولار)، فرد الشاب بأنه لا يشتري الحوت في البحر أي يريد أن يلمس النقود وليس مجر كلام في الهواء(**من الرواية صفحة 18**).

فهو لا يؤمن إلا بالملموس فهو لا يؤمن بالشيء غير الموجود.

---

[1]- معنى شذر في قاموس المعاني. www.almaany.com

[2]- الرواية، ص: 14

[3]- الرواية، ص: 16.

[4]- الرواية، ص: 17.

-**اللي ما ينفع أدفع،**[1] مثل شعبي جزائري، يضرب عادة عندما لا نجد النفع في شيء أو شخص ما، بمعنى الشيء الذي لا ينفعك اتركه لأنه لا يسمن ولا يغني من جوع، وعادة هذا المثل يتكلم عن أصحاب المصالح فمن ليس فيه مصلحتي ولا ينفعني في شيء، أدفع به إلى الهاوية.

وفي الرواية أدرج هذا المثل على لسان الاسكافي الذي يقول بأن الدراسة لم تعد تنفع في وقتنا هذا وقد ضرب مثالا بقدور الفيلسوف الذي لم تنفعه دراسته في الجامعة طيلة أربع سنوات في شيء.

-**اختلط الحابل بالنابل** من **الرواية، (الصفحة: 64)** ، المقصود بالحابل في هذا المثل هو من يصيد بالشبكة، أما النابل فهو الصيد بالقوس والنبل، والاثنين إذا اجتمعا في مكان واحد بغرض الصيد فلن يصطادا شيء لأن كلاهما سيشوش على الآخر،[2] ويضرب هذا المثل عند اشتباك الأمور واختلاطها ببعضها، أو عند وقوع الشر بين جماعة من الناس، ويقال هذا المثل بصيغة أخرى: ثار حابلهم على نابلهم.

أما في هذه الرواية فقد اختلطت الأمور في المسجد بين أصحاب الناقة والإمام ومن اتبعه، فالبعض ساجد والبعض الأخر راكع، البعض قارئ والبعض صامت وهذا بغرض تشويش الأوضاع من قبل جماعة الناقة الذين أعلنوها حربا صامتة باردة.

- **انقلب السحر على الساحر (من الرواية،صفحة 109)**

-**يبحث عن إبرة في كدس تبن، من الرواية، صفحة 125،** هذا المثل يضرب لصعوبة العثور على الشيء، فلبحث المهدي بن تومرت عن الرجل الذي سرق الشاة في مدينة كبيرة غاصة بالناس مقيمون ومسافرون كان أمر أشبهبالبحث عن إبرة في كومة قش، وهذا لاستحالة العثور عليه.

---

[1]- الرواية، ص: 19.

[2]- مصطفى فتحي، موسوعة الأمثال العربية الفصحى، دار أسامة للنشر و التوزيع، الأردن-عمان، ط1، 2001، ص: 20.

- **أخرج عريان أمام الرب يكسيك.**[1]يضرب في ضرورة التعامل بشفافية وصدق في الأمور، وفي الرواية تقول نايلة: " **لماذا الكذب.. بلأنا بحاجة الصدق الآن**" **(من الرواية، ص: 139)**، فهي تريد أن تكون شفافة ربما الله يغفر لها ما تقدم من ذنوبها.

ب- التراث الصوفي:

إن تشغيل محمد ساري للخطاب الصوفي كعنصر بنائي يراهن من خلاله على إنتاج المعنى والانفصال عن بلاغة الوضوح، وتكثيف غموض النص، لا ينحصر في العنوان والتصديرات – مثلما أشرنا- بل يتجاوز ذلك إلى النسيج النصي – كما لمحنا في بعض المواضع- بما يجعل هذا العنصر ساريا في روايته.

ولقد شغل الروائي الشخصيات الصوفية:

كشخصية إبراهيم بن عبد الله الصوفي، الذي ذهب من الكوفة إلى مكة مشيا على قدميه من دون زاد مدّة أربعة عشر عاما كرامة من الله عليه.

* **الحلاج فقد عقله وراح يهذي في شوارع بغداد،**[2]فالحلاج صوفي وأحد الزنادقة من بغداد ادعى النبوة وقد قتل لزندقت، ذكر في هذه الرواية لمقارنة قدور الساذج به حيث أنه درس الفلسفة،"من تفلسف تزندق"،

* **هكذا نصب المهدي نفسه إماما**[3]، تناص مع المهدي بن تومرت الصوفي الذيوُلد في جبل السوس بالمغرب، سافر إلى الأندلس ومصر والحجاز. واتصل عن قرب بآراء ابن حزم والغزالي وتأثّر بهما، ثم أخذ بعد عودته إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في تشدّد ملحوظ. ولاقى في سبيل ذلك عنتا، وكانت له محاجات طويلة تأييدًا لدعوته.*

استنكر المعتقدات وطريقة الحكم، وكوّن لنفسه أتباعا علمهم ونظمهم وسماهم المؤمنين أو الموحدين، وبدأ يحمل على دولة المرابطين ويضع أساس دولة الموحدين التي أقامها

---

[1]- الرواية، ص: 139.

[2]- الرواية، ص: 18.

[3]- الرواية، ص: 162.

*- ابن تومرت (473 – 524هـ / 1080 – 1129م

تلميذه عبد المؤمن، وكانت دعوته سياسي دينية سُفكتْ فيها دماء كثيرة. آراؤه مزيج من تعاليم الشيعة وأهل السنة.

- **الكرامات في عهد المهدي بن تومرت**[1]، ويُروى عنه أنه كان يلجأ إلى الوعيد والتهديد والإقناع للوصول إلى أغراضه، وعندما يعجز في ذلك، كان يستعمل الحيلة والمكر وحتى سفك الدماء، ونذكر في ذلك على سبيل المثال: "إنه أخذ يوما قوما من أتباعه، ودفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم تنفسا في قبره، وقال لهم: إذا سُئلتم فقولوا: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقا من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة (قبيلة المرابطين) وعلوّ الدرجات التي نلنا بالشهادة، فجدّوا في جهاد عدوّكم...

والكرامات مثل تكلم الموتى لمبايعته فهذه حيلة من حيله.

- **عبد الله العظم** واكتسابه لكرامات جليلة، الذي لم يكن يحتاج إلى معبر لينتقل بين ضفتي نهر الفرات، يكفيه أن يمشي فوق سطح الماء مثلما يمشي على جسر.[2]

3- التناص مع التاريخ والسياسة:

يشكل التاريخ كهفا مرددا لصدى أصوات ترديدا أمينا، ولا ريب أن اللغة هي الوجه الأخر للتاريخ، نظرا للوعي الذي يسكنها، فهي- على حد تعبير ميخائيل باختين " ليست نظاما مجردا من الأشكال والصور المعيارية، بل هي رأي مختلف ملموس عن العالم.

كل كلمة تفوح برائحة السياقات التي عاشت في حياتها الاجتماعية بحدة وكثافة، إن الكلمات والأشكال مسكونة بالبنيات.[3]

لذلك نجد لغة محمد ساري مسكونة بركام من الأسماء، تحيلنا إلى شخصيات تركت بصماتها لبطولية في ذاكرته، وإلى مدائن سحبت أفاقها الجمالية، وأبعادها التاريخية على مخيلته.

---

[1]-الرواية، ص:123.

[2]- الرواية، ص: 41.

[3]- شرافشناف، التناص في ديوان البرزخ و السكين، ص:137.

فكان يحن من حين إلىأخرإلى هذه الأطياف التي تواترت أصواتها في كيانه، فآثر أن يستدعيها كلما دعا الأمر لذلك، عامدا إلى خلق نسق حواري يقوم على تعدد الأصواتلإثراء التجربة الشعرية، وإباحةإمكانيات التأويل للقارئ.

ويقوم تناولنا للتناص مع التاريخ من منطلق اعتبارها وحدة متكاملة، أو كسلسلة من الحوادث البشرية تتداعى الجدران بين أجزائها، على الأديبإنيستبطنه ويسبر غواره، ويستلهم الأحداث في الماضي، ما يلائم مواقفه المعاصرة مما يكسب روايته أبعادا شمولية،ورحابة إنسانية عامة.[1]

– **ما أيتمناالعدو الغاصب أمامنا والصحراء القاحلة وراءنا**[2]، يقوم هذا المقطع على امتصاص لخطبة "طارق بن زياد" التي يقول في مطلعها:" يا أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم الله إلا الصبر والصدق.." محفزا الجيوش الإسلامية على خوض غمار الحرب لدحر العدو، بعد أن أوشكت الجيوش على التراجع، وقد قام الراوي بتحوير مطلع الخطبة العدو الغاضب أمامنا والصحراء القاحلة وراءنا وقد ابتدأها بعبارة ما أيتمنا بدل أين المفر؟ ليؤكد لنا انه لا مجال للهرب الجلوس والاستماع لروايته أمر لا مفر منه.

– **ماركة العبقري بيل غايت**[3] وبيل غايت رجل أمريكي وثاني أغنى شخص في العالم، أسس عام 1975 شركة ميكروسوفت مع بول آلان وقد صنع ثروته بنفسه وهو خبير كمبيوتر.

– **بالنظر إلى كل الحروب التي دارت رحاها في أقاليمنا، خلال القرون السالفة، كنا دوما محاربون أشاوش..ننخرط مندفعين في جيوشهم لخوض حروب لم تكن تعنينا**[4]، تناص مع تاريخ وسياسة الثورة الجزائرية، فكان الجنود الجزائريون يخوضون الحرب

---

[1]– شرافشناف، التناص في ديوان البرزخ و السكين، ص:138.

[2]– الرواية، ص:06.

[3]– الرواية، ص: 08.

[4]– الرواية، صفحة نفسها.

ضد المستعمر الفرنسي وما يلبثون حتى ينخرطون في جيش هذا الأخير عنوة لخوض حروب فرنسا ضد ألمانيا أيام الحرب العالمية.

– **أنا من عائلة محاربين، خاض أبي حربه ضد الغزاة، وها هو أخي غير الشقيق يخوض حربهأيضا**[1].تناص مع تاريخ ثورة التحرير الوطني، المجاهدين الذين خاضوا الحرب ضد الاستعمار الفرنسي حرب أول نوفمبر 1945.

– **لا يحمل أحد السلاح ويصعد إلى الجبل من أجل الموت**[2]تناص مع العشرية السوداء سنة 1991 الجبهة الإسلاميةللإنقاذ، حين بدأ الملتحون الصعود إلى الجبل

– **يستولي الغالب على السلطة وما يتبعها من غنائم**[3]، وغداة الاستقلال للجزائر يستولي أعمر حلموش بالقوة على بيت المعمر الفرنسي بالمدينة المسمّى بحوش الرومي، كغنيمة من غنائم الانتصار وينقل إليه عائلته من القرية،**الاستيلاء على كرسي السلطة والحكم.**

– **نقدم له هذا الاكتشاف الغريب الذي عثر عليه المهدي داخل ضريح سيدي المخفي.**[4]اكتشاف المخطوط الذي يتحدث عن سيرة المهدي بن تومرت الذي ولد في المغرب.

– اتخذ المهدي وجهة الشرق، وجهة القبلة...كان يريد السفر بعيدا... مشى طويلا في اتجاه الشمس برغبة جامحة في تقليد سيده **إبراهيم عبد الله الذي قرر أن يحج راكعا ساجدا ليبين مدى زهده في الحياة،**[5] لقد حج ماشيا إلى غاية باب مسجد الحرام في قول المهدي: **أنا مسافر على بركة الله، إلى مكة إن شاء الله،**[6] فيقرّر المهدي أداء

---

[1]– الرواية، ص: 08.

[2]– الرواية، ص: 09.

[3]– الرواية، صفحة نفسها.

[4]– الرواية، ص:37.

[5]– الرواية ص: 40.

[6]– الرواية، ص: 48.

مناسك الحج اقتداء بهذا المتعبّد، فيذهب إلىمركز الحدود الجزائرية الشرقية ويحاول اجتيازها فيمنعه رجال الشرطة من ذلك لعدم امتلاكه جواز سفر.

– **منذ تلك الحادثة وعند موعد كل صلاة يجتمع المهدي مع مجموعته في ركن من أركان المسجد ويصلي بهم...محاطا ببعض الأعيان**[1]،التيار الاسلامي في الجزائر،اعتبر أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذالذين لم تطلهم يد الاعتقال تصرفات الجيش بمثابة إعلان حرب على الجبهة وقرروا البدأ بحرب عصابات بكل وسيلة متوفرة لهم.

وتجدر الإشارة هنا أن الجبهة الإسلامية كانت تسيطر على 12000 جامع ومسجد ومصلى سنة 1990، بالإضافة إلى المساجد الحرة.– **مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه**[2]، تناص مع قصص الخلفاء الراشدين في التراث الإسلامي، وهي فتنة مقتل عثمانهي أولى الفتن التي وقعت في الدولة الإسلامية، وتعرف كذلك بالفتنة الأولى، وهي بداية لأحداث جسيمة عُرفت في التاريخ الإسلامي بالفتنة الكبرى،أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفانفي سنة 35هـ، ثم تسببت في حدوث اضطرابات واسعة في الدولة الإسلامية طوال خلافة علي بن أبي طالب.

– **ستعيشون يوما مشهودا، يغير مجرى التاريخ بهذه المدينة المباركة**[3]، **وستردده الألسنة طويلا تناص** مع قصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة إلى المدينة المنورة.

– **خلوا سبيلها فإنها مأمورة مثلما كانت ناقة رسول الله مأمورة**[4]، تناص مع **بناء أول مسجد في الإسلام.**

– **رافعين عقيرتهم بالنشيد الممجد لعظمة الله ورسوله والناقة المحظية،(من الرواية، الصفحة: 77)**، نشيد طلع البدر علينا.

---

[1]– الرواية، ص:64.

[2]– الرواية، صفحة نفسها.

[3]– الرواية، ص: 74.

[4]– الرواية، صفحة نفسها.

– أوضح بأن الله وجه خطوات الناقة مثلما فعل مع ناقة الرسول محمد (ص)، من الرواية، صفحة: 79).

– إنه صيف 62 الساخن بفوضى وحمى التملكوالسيطرة والانتفاع بالمال ومواقع المسؤولية،(من الرواية، صفحة:86)، فبعد الاستقلال ونزول المجاهدين إلى المدن، فبدأوا بتقسيم الغنائم ابتداء من بيوت التي كانت للفرنسي على أساس أنه ملكهم الخاص بهم، فبدأ المجاهد في استرجاع الممتلكات.

– ستنبت بذرة الإسلاممع الخميني... الثورةالإيرانية في إيران والخميني رجل دين سياسي إيراني، بدأ نشاط التيار الإسلامي السياسي بالازدياد تدريجيا متأثرا بالثورة الإسلامية في إيران فمن خلال بعض العمليات التي كانت تستهدف محلات بيع المشروبات الروحيةوممارسة الضغط على السيدات بارتداء الحجاب.

– أنهى خطبته بدعاء طويل عريض[1].تناص مع خطبة عثمان بن عفان

– سنقضي على الأفكار الشيوعية المعششة في أذهان الناس. إن الانتقال إلى الرأسمالية يتطلب تهيئة الذهنيات التي انطبعت على الاشتراكية منذ الاستقلال لماذا لا نحدث معجزة لأنفسنا.[2] أراد المهدي تحقيق معجزة مهما كانت الظروف، يريدها اليوم قبل الغد ومثله في ذلك المهدي بن تومرت، ويدفعه ذلك إلى البحث من جديد عن معجزته الخاصة به وهي إيجاد سرّ مدخل النفق المؤدي إلى مكة، والموجود داخل ضريح سيدي المخفي الذي جاء منه إلى مدينة عين الكرمة. هذا ما حدّثه عنه والده الشيخ امبارك مرارا. فيدخل إلى الضريح وينبش بخنجره في عمقه، مفتشًا ومنقّبًا عن هذا السرّ، لكنه لم يعثر على أي شيء يدلّ عليه سوى جمجمة الولي وعظامه. فتثور ثائرته من هذه الخيبة، فيفقد صوابه ويأخذ في الصياح والصراخ كالمجنون، ويضرم النيران في الضريح حتى تحترق بنايته بأكملها ثم يختفي في الغابة.

---

[1]– الرواية، ص: 108.

[2]– الرواية، ص: 252.

- **انتهى زمن بومدين وسياسة التقشف (من الرواية الصفحة 184)**، حيث أن الرئيس الراحل هواري بومدين انتهج سياسة التقشف مثله في ذلك هتلر في ألمانيا لكي لا يثقل كاهل الدولة بالديون، لكن الشعب كان متذمرا من نهج هذه السياسة.

III. التناص الخارجي في رواية الغيث.

1-الأسطورة:

إن الاشتغال على النص الأسطوري، هو بالدرجة الأولى، رهان على الوصول إلى مناطق "الامتلاء العذري البريء لموضوع لا يستنفذ، (موسوم) بتعددية المسالك والطرق والسبل التي رسمها الوعي الاجتماعي وخزنها في الموضوع"[1]

وهذا الأخير هو المدار الذي ولع به الأدب الحديث من شعر ونثر... إنه ولع بالغيبي...واللامتناهي... لذلك نجد الأديب يصيخ بقلبه للحظة صدام الإنسان بالحياة، وينصت بإمعان لما سطره العقل الإنسانيالأول وهو يواجه الوجود.

والأسطورة لقاء إبداعي على مستوى الرؤيا والرمز، فالأسطورة والدين والشعر تجليات ثقافية تستلهم النماذج الأصلية ذاتها، لكن كلا منها يشكلها بصيغة متميزة ترسم الحدود بين النوع التعبيري والأخر.

وفي هذا نشير إلىأن مصطلح (الأسطورة) يأخذ عند الكاتب منحى ايجابي، يصعد نحو أفاق رحيبة، بل يسعى من خلال توظيفه إلى القبض على اللحظة المستحيلة.

ولذلك فإنه من شروط نجاح الأسطورة في أداء وظيفتها أن تكون مفهومة لدى المتلقي، وأن يكون مدلولها العام متجاوبا مع حقيقة مشاعره.[2]

-**أسطورة السندباد البحري** رمز الاكتشاف والبحث عن عوالم الامتلاء الخصوبة، قد ألهمتالأدباء بوصفها المعادل الموضوعي لإشراقات رؤيوية، رؤيا البعث المنتظر لواقع هش ومتآكل.[3]

---

[1]- شرافشناف، التناص في ديوان البرزخ و السكين، ص: 165.

[2]- نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- نفسه،صفحة: 168.

ولقد كان لها حضور قوي في الأدب من شعر فطفحت بها أشعار بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وخليل خاوي وفي رواية الغيث وظفها محمد ساري لكن بغيا اسم السندباد وتتخذ الأسطورة صورة الرحلة والتخيل ويكون السندباد الغائب كاسم حاضرا في جوف الإيقاعات السفرية التي تروادالأديب ففي قوله:

- **معلقون بمخالب طائر الرخ العملاق:** الذي نسيج خيوط حكايته خيال القدماء، وردت عنه الروايات في الغرب والشرق على السواء، ولكن كتاب ألف ليلة وليلة هو الذي حفظ قصصه، وما زال العلماء يجتهدون لمعرفة أصل هذه الأسطورة وفي أي زمان ومكان نشأت.

تبدأ حكاية الرخ والسندباد حين قام من نومه فوجد أن زملاءه البحارة تركوه وحيدا على الجزيرة المهجورة ورأى على البعد قبة ضخمة بيضاء فاتجه نحوها وبينما هو يحاول التعرف على طبيعتها اختفت الشمس، فعرف أنه طائر الرخ الذي سمع عنه من زملائه البحارة وفهم أن القبة البيضاء ما هي إلا بيضة الطائر الرخ فاستعان بالرخ للرحيل من الجزيرة، فربط نفسه في ساق الرخ كي يحمله معه إلى مكان معلوم.

وهكذا تناص محمد ساري مع هذه الأسطورةفهو يريد التحليق بالقارئإلى مكان معلوم وهدف منشود مثل الأسطورة تماما.

- **انقضى زمن رواة الأسواق و حكاياتهم الساذجة حول الجنة الشريرة والغيلان النهمة أكلة لحوم الأطفال...** وهو ذكر حكاية الغولة والشقيقان التي أرادتأكلهما لكن بذكاء الطفلان استطاعا الإفلات منها في النهاية.

- **الذي يرفع السلاح يكون منجذبا أكثر نحو صورة عودته منتصرا غانما**تناص مع أسطورةأوديسيوس، (في إلياذة هوميروس)الذي يعود إلىأحضان حبيبته بينيلوبي بعد انتصاره.

- **حاول التسلق بين منعرجات السفح الحجري، زلق وأعاد الكرة مرارا**[1]تناص مع أسطورة سيزيف وتعد هذه الأسطورة التي عمقت الرؤى الإبداعية دون أن تستترف

[1]- الرواية، ص: 42.

شعريتها وتحولها إلى مجرد كومة رموز، فهي المعاناة الأبدية*وهي الفتحة السرية التي تتصب منها مأساة الإنسان المنجذبة بين قطبي العذاب والألم، ومحنة السعادة التي لم يدركها الناس، لتدفق حياتهم قدرا لا يدركون كنهه.

والأدباء الجزائريون في توظيفهم لهذه الأسطورة يختلفون من شاعرلأخر حسب موقفه النفسي وحالته الشعورية، ولكن في نص الغيث يغيب اسم سيزيف تماما من حيث البناء اللغوي وحتى معنى العذاب فمحمد ساري هنا أراد به معنى آخر ودلالة أخرى وهي إصرار المهدي على الوصول إلى هدفه المنشود الذي صبح هاجسا كبيرا وهو تصميمه على الإتيان بمعجزة.

2- الشعر:

يشكل التراث الشعري العربي فضاء فنيا خاصا يتنفس فيه الشاعر المعاصر ليعيد تشكيل ذاته، ويسعى من خلاله إلى الإمساك بتلابيب الوعي المترنح في سماء الإبداع الإنساني.

وكاتبنا واحد من الذين دخلوا هذا المعترك، إذ شحن ذاكرته بوهج شعري لا تخمد جذوته، فأسعفه في مسيرته الشعرية بزاد لغوي، وجرس إيقاعي علق بروحه، من الصعب على الليالي إزالة نقشه أو وشمه الماثل على ذاكرة الإحساس، وقد كان هذا العامل دافعا هاما في تكريس إتباعه ولو بشكل غير مباشر.

- **أبقلم من القصب وعلى قرطاس متغصن**[1]:تناص مع بيت شعري للمتنبي:

الخيل والليل و البيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم.

---

* أسطورة سيزيف مضمونها: أن الآلهة حكمت على سيزيف ملك كورنيثا بتصعيد حجر إلى أعلى الجبل، ولبلوغ هدفه هذا تعرض إلى مشقة كبيرة، فكان كلما صعد بالحجر إلى ذؤابة الجبل ونزل منه، فإن هذا الحجر الضخم يتدحرج وراءه ويهبط، وكان يعيد الكرة إلى ما لا نهاية، وقال البعض الآخر أنه ارتكب عملا محرما، وهو الإفشاء بأسرار الآلهة، لذلك تقول الأسطورة أن زيوس أرسل إليه تافوتوس اله الموت، لكن سيزيف نجح في تقييده إلى أن جاء يوم اجبر فيه زيوس سيزيف الإفراج عن تافوتوس ونقل سيزيف إلى الجحيم، وعاش بعد ذلك أعواما عديدة قبل أن يعاقب على جرائمه.

[1]- الرواية، ص: 07.

- **بقيت السماء صخرا لا يعرف السراء وإن مسته الصفراء المعتمة،**[1]تناص أدبي مع بيت أبي نواس الذي قال:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ♣♣ وداوني بالتي كانت هي الداء.

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها♣♣ لو مسها حجر مسته سراء.

- **لكم بقي المهدي رابط الجأش، صلبا كجلمود صخر،**[2]تناص الروائي في هذه الجملة مع بيت من أبيات: امرؤ القيس في معلقته:

مكر مفر مقبل مدبر معا ♣♣ كجلمود صخر حطه السيل من علا،

الذي يصف خيله حين يغزو، فصوره بالكر والفر معا والإقبال والإدبار، أتى بالضد والتقبض ثم صوره في إقدامه كقطعة كبيرة من الصخر تتدحرج من فوق جبل عال بسبب السيل والإمطار.

- **اليوم خمر وغدا أمر،**[3]تناص مع شعر امرؤ القيس الذي قال:

لا صحو اليوم ولا سكر غدا ♣♣ اليوم خمر وغدا أمر.

ومناسبة هذا البيت أنه لما قتل بنو أسد أباه الملك حُجرا كان أبوه قد أوصى وهو في أنفاسه الأخيرة أن يعطى الملك من بعده إلى الذي لايجزع عند سماع مقتله من أبنائه فلما سمع أبناءه الخبر عند مقتل أبيهم جزعوا كلهم إلا امرأ القيس الذي يروى أنه كان في مجلس شرب مع نديم له يلاعبـــه النرد.

وقال له الناعي يا امرء القيس قتل أبوك فلم يلتفت إلى قوله وأمسك نديمه عن اللعـــب وقال له امرؤ القيس اضرب فضرب نديمه النرد حتى إذا فرغ قال له امرؤ القيس ماكنت لأفســد عليك لعبك ثم التفت إلى الناعي وسأله عن أمر أبيه فأخبره الخبر فقال ولقد أقسم أن يثأر لموت أبيه.

---

[1]- الرواية، ص: 11.

[2]- الرواية، ص: 97.

[3]- الرواية، ص: 170.